والحق ان الصهيونية افترضت، منذ مؤتمر بازل ١٨٩٧، ان حربها بدأت مع العرب. وأخذت، منذئذٍ، تقيم مراكز سرية للتدريب في كل مكان وجدوا فيه، او ينتسبون الى الجيوش المحلية، أو يبادرون الى الخدمة الاجبارية، حتى اذا انتهوا منها سجلوا أنفسهم في سجلات الاحتياط الصهيونية (في حرب العام ١٩٧٣ جاء منهم الى فلسطين خمسون الفاً من الخبراء المدربين، من مختلف جهات أوروبا). ولقد اتخذت حياتهم الطابع العسكري منذ الطفولة الى الشباب. نواديهم المنتشرة في العالم تقوم على هذا الامر بالاشتراك والتعاون مع الكنس. لقد أدركت الصهيونية معنى الحرب، وما تقتضيه من حشد للطاقة الانسانية. أكانت حباً أم حقداً.

ولقد تميّز الاعداد الحربي العربي بمميزات تكاد تكون على طرف النقيض. تميّز بالخفّة والخيال. ان دراسة المعارك التي امتدت من العام ١٩٢٠ الى العام ١٩٤٨ تؤيد ذلك. لقد طرأت تبدّلات أساسية في صفوف المقاومة وفي بعض الدول العربية، لكن حشد الأمة لم يتسن لنا حتى الآن. وقد يطوي جيلنا تراب الوقت قبل ان تحقق تلك الأمنية، ولأعط مثلاً:

نأخذ مدارسنا، فهي الاساس وهي التي يجب ان يبنى فيها الانسان المحرّر. يندر ان تجد فيها ملعباً او أشجاراً. انها أشبه بالمعتقلات. لقد أطلقت الثورة في مصر شعار «العلم لكل الشعب» وهو شعار حق وضروري، لكنه لا يحتمل الخلل أبداً. الطاقة الاقتصادية المصرية بعيدة من ان تحققه، ولقد لجأ القائمون على الأمر الى الاحتيال على ضيق المكان، فضاعفوا الدوام في البناء: صف يدرس قبل الظهر، وآخر بعده. وأجازوا اعداداً في الصف تخالف كل قواعد التعليم. لكن لا حيلة باليد. نجم عن ذلك ـ بالاضافة الى أمور كثيرة أخرى لسنا في مجال بحثها ـ تدنّ مخيف في التدريس وتأثير المعلم المرهق، مادياً ومعنوياً، فبات حضوره للدرس شكلياً روتينياً، وأسلمت أجيالنا الجديدة لمسلسلات التلفزيون التي يتفنن باعثها برداءتها وثقل دمها وتوجيه جاهل ودنيء.

لقد أصبحت التقاليد العسكرية العربية والفروسية سيرة تفتح للتسلية، من دون ان تتحول الى تقليد حقيقي منظم معدّ للقرن العشرين؛ وعلى من يحاول ان يردّ على الظلم، والاحتقار، والاحتلال، ان يكون على مستوى الحرب وان ينعش الرجولة في الانسان ويدرّبه على تحقيق المثل، لا ان يذلّه حتى فقدان نسغ المقاومة.

بقي ان أقول، ان الرواية كانت من أهم ما ساهم، وبخاصة في اوروبا الغربية، في تكوين صورة العربي فيها؛ لأن شعوب تلك البلدان شعوب قارئة؛ الكتاب فيها غذاء يعدل الطعام. أما الكتاب العربي، فلا وجود له. ترى ألأننا أمة لم تبدأ فيها محاولة جدية لمحو الأمية ؟

د. سامي الجندي